دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الخامس، ديسمبر ٢٠٠٨ (طبع في إبريل ٢٠٠٩م) (ص١٧٩-١٩٢)

"النظرات" لمصطفى لطفى المنفلوطى في تصوير مشكلات المجتمع

محمد مصطفي كامل*

ملخص البحث:

هذا بحث أدبي وجيز سعي فيه الكاتب إلى دراسة أسلوب مصطفي لطفي المنفلوطي في تصوير مشكلات المجتمع الإسلامي عامة والمصري خاصة من خلال مقالاته الأدبية، التي كان يكتبها في جريدة " المؤيد" با سم "النظرات" بإناقة وطرافة. بدأ بحثه بتمهيد أشار فيه إلي العصور التي مر بها النثر العربي مع المسحة الخاطفة بحياة الكاتب ونشأته الأدبية، ثم خاض في لب الموضوع وتناول دوره في تصوير مشكلات المجتمع وذكر فيها معني المقالة لغة وأصطلاحا ونشأته الأدبية وأطوارها وأسلوب الكاتب فيها ومزاياها وكيف أحدث أسلوبه البديع ضجة كبري في القراء ثم قدم النماذج من كتابه "النظرات" مع دراستها الأدبية وبيان تصوير مشكلات المجتمع و تقديم حلولها. فأرجو من الله عزوجل أن يتقبل هذا العمل الزهيد ويجعله في ميزان حسناته. إنه سميع، مجيب و بالإجابة جدير.

نحن نعرف جيدا أن النثر العربي بلغ في أخريات العصر العثماني الغاية في الركاكة والضعف، فأصبحت عبارته سقيمة جوفاء، لا معني فيها، مقيدة بقيود ثقيلة من الحلي والزخارف المصطنعة. أكثر ما يهم الأدباء هو الإكثار من الصور البديعية جريا على سنن العصر المملوكي السابقة لكنهم بالغوا أكثر من سابقيهم.[1]

وبعد ذلك بدأ يتطور النثر العربي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، و أخذت تتطور أساليب الكتابة و ضاق السبيل إلي تلك المحسنات والزخارف، و تحرر النثر الفني من شكل

* الأستاذ المساعد :في قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية ،بكلية الشريعة و الدراسات الإسلامية ،الجامعة الإسلامية العالمية- شيتاغونغ.

التصنع و الوصف الخارجي. و استجاب إلي لون من الترسل. وظهرت المقالة العربية لكونها من ألوان الإبداع النثري[2]

وما أن خطا القرن العشرون خطوات حتي كاد النثر المسجوع المتصنع أن يختفي. ومال الأدباء إلي الأسلوب المرسل. و أخذوا يبحثون عن أسلوب جديد تظهر فيه شخصية الأديب و براعته. و يتميز بملامح فنية وسمات أدبية و يخلو عن الزخارف البديعية. وفي ذلك الحين طلع في أفق الأدب العربي السيد مصطفي لطفي المنفلوطي بمقالاته الأدبية الفنية التي كان يكتبها في جريدة " المؤيد"باسم " النظرات" بإناقه و طرافة. وكان أسلوبه الجديد عاريا عن التكلف والتصنع الذي يحجب المعني المقصود و يكبله. فملأ الدنيا و شغل الناس بأسلوبه الجديد الذي ولج حياتهم. فوجدوا فيه فقيدهم و اكتشفوا ضالتهم و رأوا أنفسهم في مقالاته فأقبلوا عليه بالقراءة و تلقوه بالقبول[3].

كانت ولادة السيد مصطفي لطفي المنفلوطي عام ١٢٨٩ الموافق ١٨٧٢ م في أسرة عريقة حسينية النسب عرفت بالتقوي و العلم و الدين. و ترعرع في بيت شريف جليل بالفقه. و توارث أهله قضاء الشريعة و نقابة التصوف. و سلك المنفلوطي سبيل أبائة فى الثقافة. فحفظ القرآن الكريم وهو في الحادية العشر من عمره وتلقي فيه بعض المواد اللازمة من الحساب والخط والإملاء. ثم أرسله والده إلي الأزهر الشريف بالقاهرة وبدأ يدرس العلوم الدينية. ويتعلم اللغة العربية ومبادئه. فأخذ فيه بحظ وافر من علوم الدين واللغة. وبقي في الأزهر الشريف عشر سنوات فراح يحفظ الأشعار وينشئ الرسائل. وأخذ يتزود من ينابيع الأدب العربي قديمه و حديثه شعرا ونثرا فقرأ لكبار الكتاب في العصر العباسي من أمثال ابن المقفع والجاحظ و بديع الزمان الهمداني و غيرهم واهتم ببعض الكتب النقدية وعكف علي دواوين الشعراء المشهورين عبر العصور خاصة العصر العباسي مثل ديوان أبي النواس و بشاربن برد. و أبي تمام و المتنبي. و ابن الرومي وغيرهم. من الأعلام البارزين المعاصرين له من أمثال الشيخ سيد المرصفي. والشيخ حسين المرصفي أدبا خالصا و فهما واعيا. وإدراكا سليما[4].

وفي الحقيقة أن المنفلوطي نشأ نشأة شعرية منذ نعومة أظفاره علي يد والده الحنون الذي كان يعجب به المنفلوطي في صغره. و حبب إليه الأدب العربي. و انكب علي استظهار القصائد من خلال الدواوين الشعرية وهو صغير لم يتجاوز حد البلوغ.[5]

إن لنشأة المنفلوطي في أسرة عريقة متدينة أثرا كبيرا علي حياته، فكان سليم العقيدة غير متعصب حريصا علي دينه و حييا يمنعه من الحديث في المجالس، و كان قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزي لا تلمح في قوله ولا فعله شذوذ العبقرية... و كان صحيح الفهم في بطئ، سليم الفكرفي جهد، دقيق الحس في سكون هبوب اللسان في تحفظ وهذه الخلال تظهره للناس في مظهر العي الجاهل.[6]

وكان المنفلوطي وطنيا صميما، يمقت الإحتلال، ويطعن فيه من وراء الحجاب، إلا أن هذه الحماسة الوطنية أودعته في أعماق السجون أحيانا وذلك بعد ان اشتد الخلاف بين الإمام محمد عبده والخديوي عباس.[7]

وكان المنفلوطي متواضعا رقيق الحاشية هادي الطبع وهو ليس كما يراه القراء بين سطور كتبه من الأسي والتوجع الذي يدل مايصاحبه من التشاءم، وكان مرهف النفس، دقيق الحس، رقيق العاطفة، رحيم القلب يغمره الشعور بالحزن لما يراه في مجتمعه من الظلم والاستبداد من قبل الحكام و المستعمرين وحرمان المصريين وبؤسهم.[8]

وصادفت وفاة المنفلوطي في يوليو عام ١٩٢٤م يوم إطلاق الرصاص علي الزعيم المصري سعد زغلول فكان ذلك يوم الهول لأهل مصر. فأثارت قرائح الشعراء و الأدباء فيرثيه أمير الشعراء شوقي بقصيدة طويلة يظهر فيها ألمه وحزنه علي فقدانه، ويشيد بذاك محاسنه الرائعة ومآثره الخالدة ومطلعها :[9]

واخترت يوما الهول يوم وداع و نعاك في عصف الرياح الناعي.[10]

"النظرات" في تصوير مشكلات المجتمع :

نظرات المنفلوطي هي مجموعة من المقالات التي صدرت في جريدة "المؤيد" انتخبت فيما بعد في كتاب خاص باسم "النظرات" التي تتميز بخصائص تفقد في غيرها و من العسير إدراك روائعها بدون إلمام تاريخ نشأة المقالة العربية و تطويرها عبر تاريخ الأدب العربي ،وفي ما يلي أذكر نبذة من تاريخها.

المقالة: هي قطعة فنية مؤلفة متوسطة الطول وتكون عادة منثورة في أسلوب يمتاز بالسهولة والاستطراد, وتعالج موضوعا من الموضوعات ولكنها تعالجه ـ علي وجه الخصوص من ناحية تأثر الكاتب به [1١]

أوالمقالة: قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع تكتب بطريقة عفوية سريعة, خالية من الكلفة والرهق. و شرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب.

هذا أشمل التعريفات وأجمعها, والتعريف الثاني هو الذي استحسنه بعض الأدباء نظرا إلي شموله من ناحية المعني مع قصره من ناحية الألفاظ وهناك تعريفات أخرى لم نتعرض لها لضيق المكان وفيما ذكرناه كفاية لنا[١٢]

نشأة المقالة العربية:

المقالة هي جنس أدبي مستقل بأسلوبه عن الأجناس الأدبية الأخرى, وإن كان يتناول موضوعاته من الحياة اليومية تعبيرا و تفسيرا شأن الفنون الأدبية الأخرى, ولكنها تختلف تماما في شكلها وأسلوبها نتيجة انطلاقها من ضوابط الأجناس الأخرى من القصة و الشعر والمسرحية وغيرها. والمقالة العربية ظهرت نواته الأولى في القرن الثاني الهجري في رسائل الأدباء المشهورين مثل رسائل الجاحظ في العشق, واللصوص, والرسائل الإخوانية, التي تدور علي المسامرات و المناظرات والأوصاف, و المقصود بالرسائل هنا تلك المقالات التي كان يكتبها أدباء و كتاب القرن الثاني الهجري تعبيرا عن مشاعرهم وأحاسيسهم, و تصويرا عن خواطرهم في أسلوب أدبي أصيل, و تكون هذه الرسائل الإخوانية بواكير المقالة العربية الحديثة, التي تتمثل في مقالة المنفلوطي في "النظرات" و كتابات غيره من الكتاب المحدثين.

ولولا ماطرأ علي النثر العربي منذ عصر الإنحطاط الأدبي من ميل إلي الصنعة و التكلف و المحسنات البديعية و الزخارف اللفظية, التي أساءت أكبر إساءة إلي النثر العربي, قد وصل أسلوب الرسائل بأسلوب الجاحظ أعلي مرتبة وصل إليها فن المقالة العربية في ذلك الزمان, ثم أخذ يتدني نتيجة لسيطرة صنوف البديع و زخارف التصنع و التكلف حتي صارت ألفاظا جوفاء لا روح فيها [١٣]

المقالة الحديثة التي بين أيدينا اليوم أول ما عرفها الأدباء الأوربيون في أواخر القرن السادس عشر و يعتبر الكاتب الفرنسي" مونتين" (م١٥٩٢-١٥٣١) والكاتب الإنكليزي"بيكون" رائدين للمقالة النربية الحديثة في الآداب الأوربية . ظهرت المقالة في أدبنا العربي الحديث في القرن التاسع عشر نتيجة اتصالنا بالغرب و اطلاعنا علي أدابه و احتكاكنا بأهله. يرتبط تاريخ المقالة العربية الحديثة بظهور الصحف و المجلات في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري. وذلك أن المقالة العربية الحديثة ظهرت أول ما ظهرت في الصحف ثم المجلات, لكن اختلف أسلوبها في هذه عن تلك, ومنشأ ذلك الاختلاف ناتج عن كون الصحيفة زادا يوميا تقرء ثم تلقي جانبا غالبا, و أما المجلة فإنها ذات قابلية للبقاء, مع اختلاف طريقة التناول بين ما يكتب في الصحيفة, وما يكتب في المجلة.[١٤]

و يري الدكتور شوقي ضيف أن بواكير المقالة العربية الحديثة ظهرت في مصر قبل غيرها من الأقطار العربية وذلك لسبقها في النهضة. و تأسيس الصحف و المجلات, و العرب الأوائل قد عرفوا ما يشبه المقالة الحديثة وهم يسمونه رسالة مثل رسالة الجاحظ هي قالب أطول من المقالة. يأخذ شكل كتاب صغير, لم ينشئوه من تلقاء أنفسهم, بل أخذوه عن اليونان و الفرس. أما المقالة الحديثة فقد أخذوها عن الغرب, و أنشأتها عندهم ضرورات الحياة العصرية و الصحفية. فهي لا تخاطب طبقة رفيعة من الأمة كما كانت معروفة عند الكلاسيكية, و إنما تخاطب طبقات الشعب بكاملها بعد ما كانت الرسائل العربية تخاطب الطبقة الممتازة من المثقفين في عصورهم.[١٥]

أطوار المقالات العربية :

يمكننا أن نقسم المقالات العربية في نشأتها وتطورها إلى أربعة أطوار ولكل طور أسلوب خاص, و ميزات يمتاز بهاأدباء ذلك العصر.

الطورالأول: هو المقالات التي تنشر في الصحف التي أصدرتها الدولة أو أعانت علي إصدارها, و أشهر من كتب فيها رفاعة الطهطاوي, و عبد الله أبو السعود و سليم عنجوري, وكانت تنشر مقالاتهم في جريدة" الوقائع المصرية" و"وادي النيل" و" روضة أخبار" و غيرها و كان أسلوبها أقرب إلي أسلوب النثر في عصر الضعف والانحطاط الأدبي من حيث الغلو في المحسنات

البديعية و الزخارف اللفظية, وكان موضوعها الرئيسي يتمثل في الشئون السياسية والاجتماعية والتعليمية.

الطور الثاني:

هو المقالات التي كانت تنشر في الصحف غير المرتبطة بالدولة أسس معظمها المهاجرون السوريون الي مصر مثل " الأهرام" و جريدة "مصر" وغيرها, كان يكتب فيها كتاب الكفاح الوطني في مصر, أمثال إسحاق, وسليم النقاش, وعبد الله نديم, ومحمد عبده وغيرهم. تتميز مقالاتهم بالترسل و التحرر من ظاهرة التكلف والتصنع والغلو في المحسنات اللفظية في الأسلوب, ومن ناحية الموضوع قد غلبت فيها روح الوطنية والإجتماعية المتأثرة بحماسة التحرر والإصلاح.[١٦]

الطور الثالث:

هو المقالات التي شهدت صحف المدارس الحديثة التي أصدرتها الأحزاب السياسية التي شهدتها مصر في عهد الاحتلال السياسي. مثل حزب الإصلاح الذي أسسه الشيخ يوسف و أصدر جريدة "المؤيد" والحزب الوطني الذي أنشأه مصطفي كامل زعيم مصر, وأصدر جريدة "الجريدة" ومن أشهر الكتاب في هذا الطور علي يوسف, مصطفي كامل, لطفي السيد, عبد العزيز جاويش و غيرهم و تميزت مقالات هذا الطور باتجاهات مختلفة من السياسة و التربية و العلمية, فقد تحرر أسلوبها تحررا كليا من قيود الصنعة و السجع والزخارف.

الطور الرابع:

هو الطور الذي بدأ منذ قيام الحرب العالمية الأولي و ما تلاها من أحداث أثرت تأثيرا جذريا في حياة المصريين. وأشهر الصحف التي أصدرت فيه جريدة " السفود" و " السياسة" و " كوكب الشرق" و غيرها, و أشهر الكتاب فيه طه حسين, محمد حسين, إبراهيم المازني, عباس محمود العقاد, تمتاز مقالات هذا الطور بالتركيز و الدقة العلمية و الميل إلي إشاعة الثقافة العامة, و أسلوبها هو الأسلوب الحديث الذي نراه اليوم في الجرائد والصحف الذي اشتهر به كتاب العصر العباقرة[١٧]

المقالة الإسلامية البحتة كان لها نصيبها الأوفر في كثير من تلك المجلات الإسلامية مثل " الرسالة" و " الثقافة" وبعض المجلات السياسية والعلمية مثل" المؤيد" و "الهلال" و"المقتطف" وغيرها . وأصدر الأزهر الشريف "مجلة الأزهر" و "منبر الإسلام" و أشهر من عمر هذه المجلات بمقالاتهم الإسلامية وكتاباتهم الإجتماعية السيد مصطفي لطفي المنفلوطي, أحمد الشرباصي, مصطفي صادق الرافعي, الشيخ علي يوسف, الشيخ أحمد ماضي وغيرهم. فن المقالة قد بلغ قمته في الطور الرابع و تحرر من جميع مظاهر الزخرفة والتكلف, و مال إلي الوضوح والترسل في الأسلوب مع الحفاظ علي جزالة الألفاظ و رشاقتها و شرف المعاني و عمقها[١٨].

أسلوب المنفلوطي في المقالة العربية " النظرات":

تكمن أهمية المنفلوطي في تاريخ النثر العربي الحديث في ناحيتين: الناحية الأولي تتمثل في تأليف نوع خاص من القصص ليست هي مترجمة و لامؤلفة بل مزيج من الإثنين أما الناحية الثانية فتتمثل في مقالاته التي يضمها كتابه المعروف " النظرات" وهي المقالات نشرت في جريدة "المؤيد" تناول فيها المنفلوطي بعض الجوانب الاجتماعية بالنقد, و شخص فيها جملة من المساوي الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع خاصة بعد الاحتكاك بالحضارة الغربية, احتفل فيها بالأسلوب الرصين, و أدي المعاني أداء فنيا رائعا, و عني باختيار ألفاظه و انتقائها, وملأها أنواع من الجرس و الموسيقي بحيث تستسيغها الآذان, و تقبل عليها القراء , وهو في جمله أسلوب خطابي شيق يتوجه مباشرة إلي القراء .

كان المنفلوطي في كتابه "النظرات" كاتبا اجتماعيا ناقدا, يصور المشكلات الإجتماعية أروع تصوير داعيا الناس إلي الفضيلة و المثل الأعلي و الإلتزام بالأخلاق النبيلة بأسلوب رشيق عذب, كأديب نابغ بارع و مصلح حكيم مخلص, و علي العموم المنفلوطي يمثل مدرسة خاصة في الأدب الحزين المظلم المنطوي علي صور البؤس و الحرمان, وهو صاحب مذهب خاص في النثر العربي الحديث, ومذهبه مذهب الأدب الإنشائي, كان كبير أهتمامه بالأسلوب في الوقت نفسه لايهمل جانب المضمون, هذا أسلوب قوي رصين خرج به المنفلوطي عن الأسلوب التقليدي, فأدخل في الأدب العربي المعاني الجميلة و الصورالرائعة بعد أن كانت الزخارف هي كل شيئ في الأدب قبله.[١٩]

وقد أحدث أسلوبه المتميز هذا ضجة كبري في عصره, و أعجب به متعطشوا الأدب في عصره, و استحسنوه بين صغير وكبير. أشاد به الرفاعي و الزيات, وطه حسين في بداية حياته الثقافية, حيث قال عنه أحمد حسن الزيات: "أشرق أسلوب المنفلوطي علي وجه - المؤيد - إشراق البشاشة, و سطع في أندية الأدب سطوع العبير. رن في أسماع الأدباء رنين النغم, و رأى القراء والأدباء في هذاالفن الجديد ما لم يروا في فقرات الجاحظ و سجعات البديع. و ما لايروا من غثاثة الصحافة و ركاكة الترجمة, فأقبلوا عليه ،إقبال الهيم علي المورد الوحيد العذب."[٢٠٢٠]

و يري الباحثون أن أدب المنفلوطي يمثل خير تمثيل للمرحلة الرومانسية التي عرفها الأدب العربي في مصر منذ مطلع القرن العشرين حتى قيام الحرب العالمية الثانية, يقول الدكتور محمد أحمد الغرب مستطيبا أسلوب المنفلوطي الجديد و شاهدا بالرومانسية: "أما أسلوب المنفلوطي فإن أبرز خصائصه يلوح في نقاء الشكل و معاصرته و موسيقيته وفي رومانسية المضمون الإجتماعي و عاطفته المسرفة."[٢١٢١]

فأدب المنفلوطي أدب حزين حافل بصور البؤس و الشقاء و الحرمان وكان يرسم تلك الصور الحزينة المؤلمة بقلمه السيال تصويرا رائعا. وكان يعرضها أمام القراء عرضا بديعا. مزيجا بالخيال و التعميم, لا يحللها تحليلا عميقا, ولا يتعرض فيه جذورهاو مصادرهاوالأسباب الكامنة و رآئها. كما هو عادة الأديب الواقعي الذي يعزو أسباب الفقر إلي النظام السياسي الطبقي أو الاستعمار. ويمكن أن السبب لعدم تعرض المنفلوطي لها الظروف السياسية السائدة ذلك الوقت في المجتمع المصري.[٢٢]

نماذج من مقالات المنفلوطي و دراسة أسلوبه فيها:

للحياة التي عاشها المنفلوطي أثر واضح في تكوينه. فهو ريفي الأصل, عربي النزعة, تفتحت عيناه أول ما تفتحت علي جمال الريف وبهائه, فتمتع بمناظره الخلابة, و شاهد بساتينه الخضراء, و مروجه الفيحاء, و عيونه الجارية, ومياهه الصافية, و أشجاره المورقة و عاش آماله وآلامه فتغني بما فيه من خير, و تألم لما أصابه من بؤس و حرمان, ولعل هذه الحياة الريفية المتلائمة لإثارة القريحة جعلت من المنفلوطي كاتبا مرهف الحس, رقيق النفس, فياض العاطفة, رحيم القلب, يغمره الشعور بالحزن لما يراه في بيئته من البؤس و الجوع, وما يشاهد من ألوان

الشقاء و الحرمان, فكتب يواسي المحرومين في أيامه, و يدعوهم إلي الأمل الباسم و المستقبل الزاهر في حياة مشرقة هانئة رغيدة.[٢٣] و إليكم إحدي مقالات المنفلوطي التي سماها " أيها المحزون"

" أيها المحزون! إن كنت تعلم أنك قد أخذت علي الدهر عهدا أن يكون لك ما تريد في جميع شئونك و أطوارك و ألا يعطيك, و لا يمنعك إلا كما تحب و تشتهي, فجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصي عليك مطلب, وإن كنت تعلم أن أخلاق الأيام في أخذها و ردها وعطائها و منعها, و أنها لا تنام عن منحة تمنحها حتي تكر عليك راجعة فتستردها, و إن هذه سنتها, و تلك خلتها في جميع أبناء آدم سواء في ذلك ساكن القصر و ساكن الكوخ, ومن يطأ بنعله هام الجوزاء, و من ينام علي بساط الغبراء, فخفض من حزنك, و كفكف من دمعك فما أنت بأول غرض من أصابه سهم الزمان, وما مصابك بأول طريفة في جريدة المصائب و الأحزان.

أنت حزين, لأن نجما زاهرا من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نورا و قلبك سرورا, وما هي إلا كرة الطرف إن افتقدته فما وجدته... ولو أنك أجملت في أملك, لما غلوت في حزنك, ولو أنت أمعنت نظرك فيما تراءى لك, لرأيت برقا خاطفا تظنه نجما زاهرا و هنا لك لا يبهر ك طلوعه, فلا يفجعك أفوله, أسعد الناس في هذه الحياة من اذا وافته النعمة تنكر لها, و نظر إليها نظرة المستريب بها, و ترقب في كل ساعته زوالها و فنائها, فإن بقيت في يده فذاك, و إلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل.

لو لا السرور في ساعة الميلاد, ما كان البكاء ساعة الموت,

لولا الوثوق بدوام الغني ما كان الجزع من الفقر!

و لولا فرحة التلاق, ما كانت ترحة الفراق! "[٢٤]

كان المنفلوطي من أبناء الطبقة المتوسطة لا يعد بأي حال من الأثرياء, بل كان أدني إلي الفقر منه إلي الغني. عاش في الريف و خالط الناس, وعرف أوضاعهم الإجتماعية, وكان فياض العاطفة, و جياش القريحة و سريع العبرة, ينفذ إلي سويداء قلبه بكاء المحزونين, و نداء المنكوبين, كان يستشعر بهذاالبؤس الإجتماعي, فأكثر من وصف مناظر البؤس و الشقاء, و أغدق

من بيان الحزن و الحرمان, فلذا نلمح هذه الظاهرة قد برزت في مقالاته الإجتماعية التي عرضها المنفلوطي في مقالته أسماها" قتيلة الجوع"

"قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا بجثة إمرأة في جبل المقطم, فظنوها قتيلة أو منتحرة. حتي حضر الطبيب, ففحص أمرها و قرر أنها ماتت جوعا, تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر. و هذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا و رزايانا, هذا الشقاء الجديد, لم تمت هذه المسكينية في مغارة منقطعة, أو بيداء مجهل فنفزع في أمرها إلي قضاء الله و قدره, و لا بد أنها قد مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها... فلم تسمع مجيبا, و وقفت في طريق كثير من الناس تسألهم علي أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسدبها جوعتها!

ألم يلتق بها أحد في طريقها؟! فيرى صفرة وجهها, وترقرق مدامعها, و ذبول جسمها, فعلم أنها جائعة فيرحمها, ألم تكن بها جار يسمع أنينها, في جوف الليل و يري غدوها و رواحها, حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره؟!! أافتقرت البلاد من الخبز فلا يوجد بين أفراد الأمة جمعيها من أصحاب قصورها إلي سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفا واحدا زائدا عن حاجته فيتصدق عليها؟![٢٥]

ثم يصف المنفلوطي بعد ذلك بدقة السبب الذي حال دون إقبال الناس علي هذه المسكينة لانقاذهم إياها عن هذه المهلكة الشنعية قائلا: " ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفاخرة و المكاثرة, والتي لا تفهم من معني الإحسان إلا انه الغل الثقيل الذي يوضع علي رقاب الفقراء لاستبعادهم و استرقاقهم لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلبا رحيما.[٢٦]

ثم تحدث الكاتب عن براءة هذه المسكينة و عفتها, و شرفها و حشمتها يقول: " لقد كان في استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن... فلم تفعل.. لأنها إمرأة شريفة تفضل أن تموت جائعة عاطشة غير شرفائها و أعفائها"[٢٧]

كان كاتبها المنفلوطي يصف هذه الأزمة الإجتماعية بدقة وحماسة, و يعالجها بأساليب متفننة في مقالات عديدة, نراه يوازن بين ساكن الكوخ والقصر, و يسلب من الغني جميع الفضل و

الشرف إلا فى موطن واحد يرتضي إليه الكاتب حينما يراه يقبل علي عمل إنساني و تلين قلبه لحالة إنسان بائس محزون مصاب بالفجع ونوائب الزمان فيواسي البائس الفقير ويشبع الجائع المحروم ويترحم علي اليتيم الذي سلبه الدهر أباه الحنون ويتلطف لحال الأرملة الحزينة البائسة التي فجعت في عائلها حيث يقول في مقالته " الكوخ و القصر"

"أنا لا أغبط الغني إلا في موطن واحد من مواطنه إن رأيته يشبع الجائع و يواسي الفقير, و يعود بالفضل من ماله علي اليتيم الذي سلبه الدهر أباه, و الأرملة التي فجعها القدر و يمسح بيده دمعة البائس و المحزون ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخري".[٢٨]

ثم يرثي لحاله و يصور تصويرا بشعا و يشخصه تشخيصا مشوها و يسلخ منه جميع فضائل الإنسان, و يقدمه في صورة إنسان لئيم يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليستغل من حاله البائسة فيمتص الثمالة الباقية من ماله ليغلق من ورائه باب الأمل يعد هذا بمثابة امتصاص أخر قطرة من دمائه الذي يؤدي إلي الهلاك و الفناء و يرثي له إن يري مدى حرصه المفرط علي المال معتقدا أن المال هو منتهى الكمال الإنساني فلا يبالي برذيلة في سبيل جمع المال. و يتأسف على عقله و رشده إن مشى تبطرا و تكبرا متطاولا عنقه إلي السماء و مستنفخا أنفه, ينتظر صعوق الناس من هيبته و سجودهم له و يشتد رثائه علي حاله ان عاش شحيحا مقترا علي نفسه وعياله وبالا ضافة هو بغيض إلي قومه وأهله ينقمون عليه حياته ويستأخرون ساعة هلاكه حيث يقول أيضا في مقالة "الكوخ والقصر"

" أرثي له إن رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل أرثي له إن رأيته يعتقد أن المال هومنتهي الكمال الإنساني فلا يطمع في فضيلة ولا يحاسب نفسه علي رذيلة ..... وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحا جعدا مقترا علي نفسه وعياله بغيضا إلي قومه وأهله ينقمون عليه حياته ويستبطؤون ساعة هلاكه"

ثم يتجه الكاتب إلى الفقير يقدمه في أروع صورة و يعده أسعد الناس عيشا و أروحهم حالا إلا في صورة واحدة يجهل فيها حقيقة شأن الغني و يغتر بمظاهر حياة الأغنياء. و يظنه أسعد منه حظا و أرخى منه عيشا و يحسد على نعمه التي أنعمها الله عليه. ثم يشخص حالته الفقير تشخيصا رائعا جميلا وقت حسده على الغني, حيث يجلس الفقير علي كسر بيته منكسرالقلب

متشرد الفكر كئيبا حزينا يصعد الزفرات ويرسل العبرات وللعجب علي جهله وسفاهة عقله حبذا لوعلم هذا المسكين رب صاحب قصر يتمنى كوخ فقير وعيشه .... ثم يقدم الكاتب حلا صائبا لهذه المشكلة الاجتماعية السائدة في المجتمع هوا أن يعامل الفقراء بخلاء الأ غنياء بما يستحق أن يعاملوابه لا كتشفوا أنفسهم في وحشة من أنفسهم وظهرت لهم حقيقة الأمر أن قنطرة الذهب التي يكنزونها إنما هي سلاسل علي أقدامهم وأغلال علي أعناقهم يبدونه أن الشرف والكمال في كمال الأدب لا في رنين الذهب وفي شرف الأعمال لا في جمع الأ موال.

ويختتم مقالته الكوخ والقصر بعظات غاليه يهيبهم أن يفيقوا عن غفلتهم ويدركوا صوابهم في شؤون الحياة فيقبلوا علي تعظيم الكرماء وتحقير الأغنياء الخلاء عارفين أن الشرف شئ وراء الغنى والنقر أن الكوخ والقصر ليس بمعيار للسعادة والكمال.

نري المنفلوطي يصور ظاهرة البؤس و الحرمان تصويرا دقيقا رائعا و يشخصها لنا تشخيصا واقعيا بديعا في مقاله"الغني و الفقير" مررت ليلة أمس برجل بائس، فرايته واضعا يده علي بطنه كأنما يشكو ألما فرثيت لحاله و سألته : ما باله، فشكي علي الجوع ففثأته عنه ببعض ما قدرت عليه. ثم تركته و ذهبت إلي زيارة صديق لي من أرباب الثراء و النعمة، فأدهشني أني رأيته واضعا يده علي بطنه. و أنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير فسألته، فشكي إلي البطنة![٢٩]

ثم يقول المنفلوطي مشيرا إلي سبب هذه المشكلة الإجتماعية و معالجا ظاهرة البؤس و الشقاء، و ناصحا الأمة الإسلامية عامة و الشعب المصري خاصة في أسلوب التعجب و الاستغراب: " فقلت يا للعجب! .. لو أعطي هذا الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام، ماشكا واحد منهما سقما ولاألما"[٣٠]

آخيرا أقول: كان المنفلوطي كاتبا بارعا ناجحا في عمله الأدبي، قد أثري مكتبة الأدب العربي بذخيرة مؤلفاته الأدبية القيمة، وبعث في الشباب المسلم الوعي و حب الإسلام و الإلتزام بكتابته الهادفة. ولعب دور الريادة في نهضة النثر العربي ووثب به إلي القرون الذهبية للأدب العربي. فله فضل عظيم علي الأمة الإسلامية و العربية و الأدب العربي سويا، و إن عاد الفضل في بعث النهضة الشعرية إلي البارودي فإن النهضة النثرية تعود إلي براعة المنفلوطي و أسلوبه الرشيق

الذي ولج حياة الإنسان و عبر عن خواطر هم و أحساسيهم و كتب عن أفراحهم و أتراحهم و ميولهم و نزواتهم بأسلوب عربي مشرق.

المراجع و المصادر :

١- عمر موسي باشا. *تاريخ الأدب العربي "العصر العثماني"*.(د مشق: دار الفكر.ط ١٩٨٩م) ص ٤٤، ٤٣.

٢- عمر الدسوقي. نشأة النثر الحديث و تطوره. (بيروت : دار الفكر العربي. ط ١٩٧٦) المجلد الأول. ص١٨٢

٣- د.عجلان. المنفلوطي *النظرات*. (مصر: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشروالتوزيع بالإسكندارية ت. د). ص/٥٩

٤- خير الدين الزكلي. *الأعلام* قاموس تراجم الأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين والمتشرقين. الطبعة الثالثة. (م. د. ت. د). جـ ٨،صـ١٤٥. و عمر الدسوقي. نشأة النثر الحديث و تطوره. جـ ١، صـ ١٨٤. وأحمد حسن الزيات. وحي الرسالة فصول في الأدب و النقد و السياسة و الاجتماع. الطبعة الثامنة. (مصر: دار نهضة مصر للطبع و النشر.ت. د) جـ ١، صـ ٣٨٨.

٥- محمد عبد المنعم خفاجي. *دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه.القاهرة*: دار انطباعة المحمد ية بالأزهر الشريف.ط. د. ت. د) ـ جـ٢، ص٣٤٧،٣٤٦.

٦- أحمد حسن الزيات. وحي الرسالة جـ ١، صـ ٣٨٨/٣٨٧.

٧- عمر الدسوقي. *نشأة النثر و تطوره*. جـ١، صـ١٨٥، والخفاجي. دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه. جـ٢، صـ٣٥١/٣٤٨.

٨- الخفاجي. *دراسات في الأدب العاصر*. (القاهرة: دارالطباعة المحمدية بالأزهر. ت. د) صـ ١٥٤.

٩- محمد عبد المنعم الخفاجي. *دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه*. جـ ٢، صـ ٣٤٦.

١٠- أحمد الشوقي. *الشوقيات*. (بيروت : دار الكتب العلمية.ت. د) الجزء الثالث صـ٧٤-٧٦.

١١- د. محمد أحمد الغرب. *كتاب عن اللغة و الأدب و النقد"رؤية تارخية و رؤية فنية"* (م. د. المركز العربي للثقافة والعلوم. ت. د) صـ ١٧١.

١٢- د. سالم أحمد الحمداني. و د- فائق مصطفي أحمد. *الأدب العربي الحديث*. (العراق: دار الكتب للطباعة الجمهورية العراقية.ت. د) صـ٣٠٩.

١٣- د. محمد بن سعد بن حسين, الأدب الحديث, " *تاريخ و دراسات*" الطبعة الخامسة(المملكة العربية السعودية: ط ١٤١١هـ ١٩٩٠م), جـ١, صـ٢٠٧.

و د- سالم أحمد الحمداني, و د- فائق مصطفي أحمد, *الأدب العربي الحديث*,(العراق: دار الكتب للطبعاعة الجمهورية العراقية,ت. د) صـ٣٠٩.

١٤- المصدر السابق, ص٢٠٨.

١٥- د- شوقي ضيف, *الأدب العربي المعاصر في مصر*, الطبعة السادسة, (مصر: دار المعارف بمصر,ت. د) صـ ٢٠٥.

١٦- د- سالم الحمدان, و د- فائق مصطفي, *الأدب العربي الحديث*, ص٣١٠/٣١١.

١٧- المصدر السابق, صـ٣١٠/٣١١.

١٨- د.محمد بن سعد بن حسين, *الأدب الحديث*, "تاريخ و دراسات"ج١, ص١٣.

١٩- د. سالم الحمدان, و د- فائق مصطفي, *الأدب العربي الحديث*, ص ٣٢٠.

٢٠- أحمد حسن الزيات, *وحي الرسالة*, جـ١, ص٣٨٦.

٢١- د- محمد أحمد الغرب, *كتاب عن اللغة و الأدب و النقد*, صـ١٧٥.

٢٢- د- سالم الحمدان, و د- فائق مصطفي, ص ٣٢١.

٢٣- د- محمد عبد المنعم خفاجي, *دراسات في الأدب المعاصر*, ص ١٥٤.

٢٤- مصطفي لطفي المنفلوطي, *النظرات*, الطبعة الأولي: (بيروت: دار القلم و دار الينابيع للطباعة و النشر و التوزيع, ت.د) ج١, ص٨٣.

٢٥- المصدر السابق, ج ٣, ص٣٢.

٢٦- المصدر السابق, ج ٣, ص٣٣.

٢٧- المصدر السابق, ج ٣, ص٣٤.

٢٨- المصدر السابق, ج٢, ص٢١

٢٩- المصدر السابق, ج١, ص٧٢.

٣٠- المصدر السابق, جـ١, صـ٧٢